د. عمر التومي الشيباني

توثيق صلة الادب المعاصر بالتراث
ضرورة قومية ودينية

مقدمة :

عندما طلب مني ان اعد كلمة لهذا المؤتمر الموقر كان اول شيء قمت به هو تصفح الموضوعات التي وضعت في جدول اعماله . وقد ادركت منذ النظرة الاولى الى هذه الموضوعات انها مترابطة ان لم يكن متداخلة فيما بينها ، حتى انه من الصعب ان يستقل الانسان احدها دون ان يتعرض للموضوعات الاخرى . ولكن بالرغم من هذا الترابط او التداخل ، فانني كنت مضطرا ـ بحكم النظام والوقت ـ ان اقصر كلمتي على موضوع واحد من تلك الموضوعات .

وقد كان الموضوع الذي وجدته اقرب الى ميولي واهتماماتي الادبية والثقافية وانسب الى ظروف وطبيعة تخصصي الذي اصبحت بحكمها بعيدا كل البعد عن الحركة الادبية بمعناها الفني الخاص ، هو الموضوع الثاني في جدول الاعمال ، المتعلق بمشكلة الادب المعاصر وعلاقته بالتراث » .

ولكثير من العوامل الشخصية المرتبطة بتكويني العقلي والثقافي، كنت مضطرا ان اقف من هذا الموضوع موقفا محافظا يرى ضرورة توثيق الصلة بين ادبنا العربي المعاصر وبين تراثنا العربي والاسلامي الخالد ، لان في توثيق الصلة بين الجانبين حفاظا على تراثنا وتدعيما لقوميتنا وتاكيدا لشخصيتنا الثقافية والادبية وربطا لحاضرنا بماضينا وتوفيقا بين الاصالة والمعاصرة في ثقافتنا . واستجابة لاوامر وتعاليم ديننا الاسلامي التي تدعونا الى المحافظة على تراثنا العربي الصالح الذي من عناصره اللغة العربية الفصحى والادب السليم . وبتعبير اوضح عن هذا الموقف المحافظ تجاه هذا الموضوع اقول منذ البداية : ان توثيق الصلة بين الادب المعاصر وبين التراث ضرورة قومية ودينية في آن واحد بالنسبة لعربي مسلم مثلي.

وفي نظري ان توثيق صلة الادب المعاصر بالتراث ، لا يتنافى ابدا مع ضرورة السماح لعجلة النمو والتطور والتجديد ان تأخذ مجراها الطبيعي في ادبنا المعاصر ، ومع ضرورة الاستفادة من جميع الحركات والاتجاهات الادبية الحديثة في جميع انحاء العالم اثراء لتجاربنا الادبية وتلقيحا لابداعاتنا الفكرية والادبية ، لانه لا غنى عن كل ذلك لاي امة تنشد التفتح والتقدم . ولكن الموقف المحافظ الذي اتخذناه لانفسنا عن ايمان وقناعة يحرص دائما على ان تكون تجديداتنا واستفاداتنا واقتباساتنا الادبية في اطار قيمنا العربية والاسلامية الاصيلة وفي اطار خصائصنا اللغوية والادبية والثقافية التي تجعل لغتنا وادبنا وثقافتنا العربية شخصيتها العربية المتميزة بين لغات وآداب وثقافات الامم المختلفة ، مع تسليمنا بان هناك قدرا كبيرا من الخصائص الادبية مشتركا بين جميع الامم لطبيعتها الفنية والانسانية العامة .

والنقاط الاساسية التي سأتناولها بالتوضيح والمناقشة الموجزة في اطار ذلك الموضوع التي اخترته تكلمتي هذه ، هي النقاط الست التالية :

١ ـ المقصود بالادب المعاصر .
٢ ـ ملامح المعاصرة او الحداثة في الادب العالمي ونقدهذه الملامح.
٣ ـ المقصود بالتراث .
٤ ـ مدى اتصال الادب العربي المعاصر بالتراث والاسباب التي من اجلها يتخلف بعض المعاصرين في علاقتهم بالتراث .
٥ ـ وجه الضرورة في توثيق الصلة بين الادب العربي المعاصر والتراث .
٦ ـ سبيلنا الى توثيق صلة ادبنا المعاصر بتراثنا .

١ ـ المقصود بالادب المعاصر :

فبالنسبة للنقطة الاولى وهي المتعلقة بمفهوم الادب المعاصر ،فانه قد يبدو لاول وهلة ان المقصود « بالادب المعاصر » هو ذلك الادب الذي يعكس قيم وخصائص العصر الذي قيل فيه . وحسب هذا المفهوم العام البسيط للادب المعاصر ، فان المعاصرة تصبح امرا نسبيا ، لا ترتبط بزمن او عصر معين ، لان كل عمل ادبي يعكس قيم وخصائص عصره هو ادب معاصر ، سواء قيل في العصر القديم او في العصر الحديث ، فالمهم في استحقاق العمل الادبي لهذا الاسم ان يعكس قيم وخصائص عصره .

والعموم والنسبية في مفهوم « الادب المعاصر » بهذا المعنى امران واضحان . ولا اعتقد ان مؤرخي الادب العربي ونقاده المحدثين عندما يتحدثون عن « الادب المعاصر » في الوقت الحاضر يقصدون به هذا المعنى ، على الاقل بالنسبة للغالبية منهم . وانما الذي يقصدونه من هذا المصطلح هو الادب الذي قيل في العصر الحديث ، سواء احتذى فيه اصحابه نهج الادب العربي القديم ، او احتذوا فيه الاتجاهات الغربية الحديثة من رومانتسية ورمزية وسريالية ووجودية

واخلاقية وواقعية ومثالية ومادية وما الى ذلك ، او كانوا فيه وسطا بين هذه وذاك .

حسب هذا التحديد الاخير لمصطلح « الادب المعاصر » كل عمل ادبي قيل في مرحلة العصر الحديث هو ادب معاصر ، سواء أكان نظما او نثرا ، وبالنسبة للشعر سواء أكان موزونا مقفى يتبع تقاليد الشعر العربي القديم او كان حرا او كان مرسلا .

ومرحلة الادب المعاصر نفسها يمكن ان تكون مجالا للاختلاف . فهل هي الفترة التي تبعت بداية المنتصف الثاني للقرن التاسع عشر والتي بدأت فيها تتضح معالم العصر الحديث وتظهر مخترعاته في بعض البلدان العربية ، او هي الفترة التي اعقبت بداية القرن العشرين والتي عمت فيها معالم العصر الحديث رقعة اوسع من الوطن العربي او هي فترة الحرب العالمية الاولى وما بعدها وما صاحب وعقب ذلك من اهوال وويلات واهتزازات في القيم التي كانت لها تأثيراتها وانعكاساتها في العمل الادبي . واتجاهاته في العالم الغربي ، ثم لم تلبث ان تسربت الى بعض الادباء العرب الذين تثقفوا بالثقافة الغربية في المهجر وفي الوطن العربي نفسه .

وقد قسم بعض الباحثين العرب المحدثين المراحل التي مر بها الشعر العربي المعاصر بالذات من سنة ١٨٧٥ م وحتى ١٩٤٠ م الى ثلاث مراحل اساسية هي :

الاولى : مرحلة التقليد والبعث التي بدأ فيها الشعر العربي يتحرر من قيود مرحلة التخلف والركود التي مر بها خلال فترة طويلة تزيد عن اربعة قرون وبدأ يأخذ طريقه جديدا الى البعث بالعودة الى الشعر الجاهلي والعباسي وما فيهما من جزالة ورصانة. ومن رواد هذه الحركة محمود سامي البارودي واسماعيل صبري ، والزهاوي ، واحمد شوقي ، وحافظ ابراهيم ، واحمد محرم ، وعزيز ابظة ، ورفيق المهدوي ، وغيرهم . وقد عرفت المدرسة التي تنتمي الى هذه المراحل بجزالة العبارة ، والتعبير عن مشاعر النفس ازاء العواطف الذاتية وازاء الاحداث القومية ، والتحرر من المحسنات البديعية المتكلفة والالفاظ الموصوفة ومن المدائح الرديئة ..الخ .

الثانية : مرحلة التجديد وتحرير الشعر العربي ـ كما يقول أصحاب المدارس التي تنتمي الى هذه المرحلة ـ من قيوده والدعوة الى وحدة القصيدة والاهتمام بالمشاعر الذاتية ، وتطعيم الشعر العربي بمذاهب الشعر الغربي. ومن حملة لواء هذه المرحلة التي امتدت من ١٩٠٧ م حتى ١٩٣٢ م تقريبا خليل مطران ، وبشارة الخوري وعبدالرحمن شكري ، وايليا أبو ماضي ، وميخائيل نعيمه ، وعباس محمود العقاد ، وابراهيم عبدالقادر المازني ، وزكي أبو شادي ، وزكي مبارك .. وغيرهم .

الثالثة : مرحلة تطور تيار الشعر الوجداني والقومي التي بدأت تتضح معالمها بعد ١٩٣٠ م والتي قاد لواءها جماعة ومجلة ابولو التي ضمت شعراء من الوطن العربي كله وان كان مقرها القاهرة ، ومدرسة المهجر الجنوبي ، ذات الطابع القومي . ومن اعلام هذه المرحلة او المدرسة الياس حبيب فرحات ، وابراهيم ناجي ، وعلي محمود طه ، وابو القاسم الشابي ، والتيجاني يوسف بشير ، وغيرهم .. (١) .

ولا يزال هناك اتجاه او قول ثالث في تفسير مفهوم « الادب المعاصر » يأخذ في حسبانه المقياس الزمني ومقياس الخصائص معا ، ويذهب الى ان الادب المعاصر « او الادب الحديث هو ذلك الادب الذي قيل في العصر الحديث وكان في الوقت نفسه يعكس روح العصر الحديث وخصائصه واتجاهاته ومذاهبه ونزعاته ويصف مخترعاته .

وايا كان مفهوم الادب المعاصر او الادب الحديث ، فان للمعاصرة او الحداثة في هذا الادب مقوماتها او عناصرها او ملامحها ومرتكزاتها التي اطال نقاد الادب العربي الحديث على اختلاف مشاربهم ونزعاتهم الادبية في ذكرها وشرحها .

وبالرغم من ان هناك عناصر او ملامح مشتركة للادب المعاصر او الحديث لدى جميع نقاد الادب المحدثين ، فان هناك اختلافا بينا بينهم في هذه العناصر او الملامح ، وذلك بسبب اختلاف نزعاتهم ومذاهبهم الادبية او اختلاف المدارس الادبية التي ينتمون اليها . فملامح المعاصرة عند اصحاب مدرسة التقليد والبعث غيرها عند اصحاب مدرسة التجديد او عند اصحاب مدرسة الشعر الوجداني والقومي . كذلك المعاصرة عند ذوي النزعة الرومانسية قد تختلف قليلا او كثيرا عنها عند اصحاب النزعة السريالية او الوجودية او الواقعية المادية او الاشتراكية .

فاذا اخذنا جماعة الديوان (شكري والعقاد والمازني) مثلا ، فاننا نجدها قد حددت للشعر الحديث مبادىء يجب ان يسير عليها ، لخصها بعض الباحثين المحدثين في المبادىء التسعة التالية :

أ ـ التعبير عن الذات البشرية وعواطفها .
ب ـ الدعوة الى وحدة القصيدة .
جـ ـ التحرر من نظام القافية الواحدة ، وكتابة القصيدة ذات القافية المزدوجة او المتقابلة او المطلقة القافية .
د ـ التجاوب مع الطبيعة واستكناه ما وراء مظاهرها .
هـ ـ البعد عن شعر المناسبات العارضة .
و ـ الابتعاد عن الزخرفة اللفظية المتكلفة .
ز ـ تحري الصدق المطلق في التعبير .
ح ـ الشعر ميزة انسانية لا ميزة لسانية ، والقصيدة الجيدة هي التي لا تفقدها الترجمة شيئا من ملازماتها الفنية .
ط ـ الدعوة الى تعميق ثقافة الشاعر والاطلاع على آداب الامم المختلفة (١) .

وهكذا لو اخذنا مدرسة او جماعة اخرى غير جماعة الديوان لوجدنا بعض الاختلاف القليل او الكثير عنها في تحديد مقومات وملامح الحداثة او المعاصرة في الادب الحديث .

٢ ـ ملامح الحداثة في الادب العالمي ونقدها :

وكثير من عناصر او ملامح الحداثة او المعاصرة التي يحاول بعض النقاد والكتاب العرب ان يفرضوها على ادبنا العربي المعاصر ويعتبروها المقاييس المعتمدة للحداثة والمعاصرة هي عناصر وملامح غريبة مائة في المائة قال بها وروج لها ادباء الغرب ونقاده على اختلاف نزعاتهم ومدارسهم الادبية ، وقد ظهرت كتابات عربية عديدة تحاول تحديد ملامح مفهوم الحداثة في الادب العالمي ، لعل احدث ما قرأت منها هو ما كتبه الدكتور حسام الخطيب في مجلة الوعي العربي . فقد ذكر الدكتور الخطيب من اهم هذه الملامح ستة ملامح اساسية نذكرها فيما يلي :

أ ـ خاصية الصدق :

ان اولى هذه الخاصيات والملامح الاساسية لمفهوم الحداثة او المعاصرة في الادب العالمي هي خاصية الصدق . ومما تعنيه هذه الخاصية في مفهوم المحدثين ان يكون الاديب صادقا في نقل تجربته ومشاعره ، وفي تصوير ما يرتبط بهذه المشاعر وتلك التجربة من مآسي وآلام ، وفي التعبير عن حياته وبيئته . وهذه الخاصية تعني ان الاديب الحديث لا يكتفي بالخيال وحده ولا يسير وفق المقولة التي تقول « ان اعذب الشعر اكذبه » والصدق عند هذا الاديب مصحوب عادة باندفاع شديد لا يحده حد نحو الكشف الحقيقي عن اعماق الانسان واستبصاراته ، وباعتداد شديد بالحرية الذاتية والجرأة التعبيرية .

---

(١) انور الجندي ، الشعر العربي المعاصر ، تطوره واعلامه .

(١) د . كمال نشات : ابو شادي وحركة التجديد في الشعر العربي الحديث . القاهرة ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، ١٩٦٧ ، ص ٢٦٦ ـ ٢٧٢ .

ب ـ خاصية الرفض :

والخاصية الاساسية الثانية لمفهوم الحداثة في الادب العالمي هي خاصية الرفض التي تتجلى في ادب كثير من الادباء المحدثين ،خاصة ذوي النزعة الوجودية المتطرفة ، فتجد الواحد منهم يقف موقف الرافض لكل ما هو قائم اجتماعيا وسياسيا ، والمستخف بالقيم والمواضعات الاجتماعية ، والنافر من حضارة العصر الحديث . وقد بلغ الرفض والاشمئزاز ببعضهم من صورة المجتمع الحديث درجة جعلته يبحث عن اجناس وافراد لم تلوثهم المدنية الحديثة لكي يعيش معهم ويلوذ عندهم بالفرار .

وقد بالغ بعضهم في رفضه لدرجة الاستخفاف بالدساتيرالخلقية والتهرب من المسئوليات . وفي اطار هذه الخاصية رفضوا ايضا التقيد بالقواعد الفنية الموروثة . فالشعر عندهم ـ مثلا ـ لا يستلزم الوزن ولا القافية ، وربما رأى بعضهم في الوزن والقافية جناية على موضوع الشعر ونوعا من التكلف .

جـ ـ خاصية التركيز على وجدان الانسان وعالمه الداخلي :

والخاصية الاساسية الثالثة لمفهوم الحداثة والمعاصرة في الادب العالمي تتمثل في الانكفاء الواضح في اتجاه العالم الداخلي للانسان والاهتمام بالكشف عن اسرار النفس وخباياها التي لا يزال كثير منها مجهولا ، ولمحتويات اللاشعور او العقل الباطني بالذات ، وبتصوير المحتوى الداخلي للنفس الذي هو غير متشكل وغير منظم وغير محدود وغير مفهوم بالنسبة للاخرين . واكثر ما تتجلى هذه الخاصية في الحركة السيريالية التي تاثرت في نشاتها وتطورها بكثير من العوامل ، لعل من اهمها بالنسبة لهذه الخاصية بالذات ، حركة علم النفس التحليلي التي قاد لواءها فرويد ومن اتى بعده من علماء التحليل النفسي . كما تاثرت بكتابات كثير من الكتاب الذين تعمقوا فيدراسة النفس البشرية ، وذلك من امثال :«الكسيس كاريل » وغيره ، فمما يقول « الكسيس كاريل » في كتابه :« الانسان ذلك المجهول » :

« لقد تقدم الانسان في عالم الماديات وتعرف على بعض تركيب المادة ، وبذلك استطاع السيادة على غير قليل من الاشياء ، فيما عدا انفسنا ، انه الانسان الذي لا يزال مجهولا وان معرفتنا بانفسنا ما زالت بدائية وجزئية ..» (1) .

د ـ الشعور باشكالية المصير الانساني :

والخاصية الاساسية الرابعة لمفهوم الحداثة في الادب العالمي يمكن ان تتمثل في الشعور الحاد باشكالية المصير الانساني وبالعجز عن تفسير القضايا الكبرى المتعلقة بالمصير الانساني وبالتوتر والبلبلة والشك والغموض في كل ما يتعلق بهذا المصير . وقد ظهر هذا التوتر والقلق والشك والغموض وعدم الاطمئنان واضحا في انتاج الادباء الذين يمثلون هذا الاتجاه في الادب الحديث من الوجوديين الملحدين من امثال « جان بول سارتر » وغيره .

هـ ـ الشعور بالاغتراب الروحي :

والخاصية الخامسة لمفهوم الحداثة في الادب العالمي تتمثل في الشعور بالاغتراب الروحي وبالجفوة وعدم انسجام الاديب مع طبيعة الحياة القائمة في عصره الحديث ، وفي شعور هذا الاديب بالفراغ الروحي والانفصام عن الحياة والمرضية والحيرة الاليمة التي تدفعه الى السراب احيانا والى السلبية احيانا اخرى ، وفي نظرته الى الحياة نظرة متشائمة ترى ان الشر هو الاصل في الحياة وان الانسان للانسان ذئب ضار وان وظيفة الادب هو الكشف عن هذا الشر ، الى غير ذلك من المظاهر والاغراض المعبرة عن خاصية الاغتراب الروحي لدى الاديب الحديث .

(1) الكسيس كاريل ، الانسان ذلك المجهول (تعريب شفيق اسعد فريد) بيروت ـ مكتبة المعارف .

و ـ النسبية والتحرر من القواعد :

والخاصية السادسة لمفهوم الحداثة في الادب العالمي تتمثل في شعور الادباء المحدثين المتاثرين بهذا الاتجاه بان كل شيء نسبي ومتغير ، وما على الاديب الا ان يستعمل طريقته الادبية الخاصة به ولغته الخاصة لينقل الى الناس رؤيته الخاصة للعالم ، وفي شعورهم بان التجربة الادبية هي فردية ونسبية . فهم لا يعترفون بسلطة ادبية لتنقدهم حسب مقاييس معينة ، وينظرون الى الشعر بالذات على انه الكلام الصافي الذي لا يقيده وزن ولا قافية، ويعتبرون ان المهم دائما في العمل الادبي هو طبيعة مادة المضمون وعمق الكشف الذي تقدمه وليس الرداء الخارجي لهذا العمل .

ومن ابرز الظواهر التي تمخضت عن القول بنسبية القيم والمعايير الفنية والادبية هي ظاهرة الشعر الحر ، وظاهرة الرواية الجديدة . واذا كان من ابرز مميزات الشعر الحر من حيث الشكل الخارجي هو عدم التقيد بالوزن والقافية ، فانه من ابرز مميزات الرواية الجديدة التي بدات تظهر بوضوح في بداية الستينات من هذا القرن هو : التخلي عن حيل السرد ومواصفاته ، وعن الحادثة والشخصية ، وعن المقدمة والنهاية .

وهم يريدون بعد ذلك كله انه ليس للفن او الادب غاية دنيوية، ولا يجوز في نظرهم ان يصبح الاديب داعية لمذهب ما ، او يشمل ادبه على مغزى اخلاقي او اجتماعي او مرمى سياسي ، والا كان مصلحا او مهذبا او واعظا او سياسيا ،وشتان بين الاديب وبين هؤلاء عندهم ، وهم بهذا يناصرون نظرية « الفن للفن » التي ترى في الفن والادب نوعان من الاشراقات التي تصفي الذوق وتصقل الروح وتنمي حاسة ادراك الجمال ، ونوعا من السبحات في آفاق المعاني والخيال المشتهي ومن اللمعات التي ترقى بالنفس الى أعلى مدارك النور .

هذه هي اهم خواص او ملامح وعناصر مفهوم الحداثة في الادب العالمي ، كما استخلصها الدارسون لهذا الادب العالمي ، والغربي منه بالذات ، وهي خصائص وملامح مترابطة ومتداخلة ولعلها جميعا عند التامل ترجع الى الخاصية الاولى وهي خاصية الصدق ، حيث ان الصدق هو الذي يجعل الاديب يرفض ما لا يؤمن به ، وهو الذي يجعله يتجاوز الظواهر السلوكية والاحداث الخارجية الى اعماق النفس والضمير ، وهو الذي يؤدي به الى التشكك في اي تفسير للمصير الانساني لا يستند الى دليل قطعي ، وهو الذي يتسبب ايضا فيجانب كبير من قلق الاديب وشعوره بالغربة والانقطاع العام عن الكون ، وهو الذي يقود الاديب الى تجاوز القواعد والمواصفات الشكلية للعمل الادبي في سبيل ضمان تعبير اكثر دينامية ومرونة واكثر دقة وتجاوبا لما يختلج في نفسه ويدور في وجدانه (1) .

نقد وتعليق على هذه الملامح والخصائص :

وفي نهاية عرضنا لهذه الملامح والخصائص لمفهوم الحداثة في الادب العالمي نرى لزاما علينا الا نجعلها تمر دون ان ننقدها ونعلق عليها في اطار نظرتنا المحافظة او الوسطية وفي اطار ما نرجوه لادبنا العربي الحديث ونهضتنا الادبية العربية الحديثة .

وفي تصورنا لهذه الملامح انها وان اتسم بها الادب الغربي الحديث الذي ينتمي اصحابه لبعض المدارس الادبية المتطرفة فيالذاتية والفردية مثل الرومانسية والوجودية والدادية وغيرها . فانها لم يتسم بها جميع الاعمال الادبية ، حتى في العالم الغربي نفسه .وان اتسم بها الادب العالمي في مجموعه فانه ليس بشرط ان يتسم بها او

(1) د . حسام الخطيب « ملامح مفهوم الحداثة في الادبالعالمي» مجلة الوعي العربي . تصدر عن مجلس شئون الثقافة والتعليم باتحاد الجمهوريات العربية . السنة الاولى ، العدد الاول ، يونيو ١٩٧٦ ص ٧٤ ـ ٨٦ .

يأخذها بشكلها السريالي او الوجودي الذي يعرضها عليه بعض كتاب الادب المحدثين ، وكأنها مسلمات وسمات عامة تلازم الادب العالمي الحديث في جميع مذاهبه ونزعاته .

فانه بكل تأكيد هناك ادباء محدثون في العالم الغربي نفسه لا يعتبرون هذه الملامح ملامح عامة يتحتم عليهم ان يتمسكوا او يتصفوا بها ليوسم ادبهم بميسم الحداثة ، وان اتسم ادبهم ببعضها او كلها فانه ليس بشرط ان يأخذوا بها في مفهومها السريالي او الوجودي، لان كثيراً منهم لا ينتمي الى الحركة السريالية او الوجودية اوغيرها من الحركات والاتجاهات الادبية الفردية المتطرفة . بل ان كثيرا منهم ينتقد هذه الحركات ، ويرى فيها من السلبية والفردية المتطرفة والرمزية والخيالية والتشاؤم والتحلل من القيم الخلقية ومن الالتزامات الاجتماعية ما يتنافى مع رسالة الاديب في مجتمعه وامته وبالنسبة للانسانية عامة .

ولهذا ، فانه من واجب أدبائنا العرب ان يأخذوا هذه الملامح بحذر، وان ينظروا اليها على انها ليست ملامح عامة تشمل جميع الاعمال والحركات الادبية المعاصرة حتى في العالم الغربي نفسه . وحتى ان اخذوا ببعضها فانه من واجبهم ان يعطوها التفسير الذي يتناسب مع عقيدتهم الدينية وقيمهم الخلقية ومع الخصائص العامة لتراثهم العربي وثقافتهم العربية الاصيلة ، ومع ما تقتضيه ظروف مجتمعهم وامتهم من عمل ادبي جاد مخلص وصادق ومن التزام صادق نابع من الداخل نحو قضايا مجتمعهم وامتهم ومن مشاركة ايجابية فعالة في حياة مجتمعهم وامتهم .

وانه لمن المؤسف حقا ان نجد ان كثيراً ممن كتبوا عن ملامح الحداثة والاتجاهات الادبية الحديثة في وطننا العربي لم يتقيدوا بهذه الاعتبارات التي ذكرناها وراحوا يبالغون في دعوتهم الى هذه الملامح والاتجاهات ويصورونها كأنها ملامح واتجاهات عامة في العالم يجب على ادبنا ان يأخذ بها دون قيد او شرط .

ومن واجب ادبائنا ونقادنا العرب ان يبصرونا في موضوعية وبروح عملية بحقيقة الملامح والاتجاهات الادبية الغربية ويعطونا التفسير المقبول لها والقدر الذي يمكن ان نأخذه منها دون ان يلحق الضرر بخصائصنا الثقافية والادبية الاصيلة .

وكمساهمة متواضعة يمكن ان أقدم التفسير الذي أؤمن به او الذي اقبله على الاقل لتلك الملامح والاتجاهات فيما يلي :

(أ) فبالنسبة لخاصية او عنصر « الصدق » فانه لا يوجد عربي واحد يعتد برأيه يمكن ان ينكر قيمة هذا العنصر وضرورة التمسك به في كل ما نعتقده ونقوله ونعمله سواء في مجال العقيدة والدين او في مجال الحياة العامة او في مجال العمل الادبي . فالصدق فضيلة وقيمة اساسية من فضائلنا وقيمنا الدينية والخلقية ، ومحمدة من المحامد الفنية والادبية وتقليد محمود يجب الاخذ به في جميع الاداب وفي جميع العصور . واذا كان هذا العنصر او الشرط لم يراع في بعض المناسبات وقصائد المديح والهجاء والرثاء والفخر والوصف والشعر السياسي فانه لا يستطيع اي انسان ان يدعي ان الشعر العربي القديم كله ينقصه عنصر الصدق حتى في شعر المناسبات نفسه، لان كثيرا مما قيل في هذا النوع من الشعر كان صادقا يعبر عما يؤمن به قائله . وفي شعرنا العربي القديم امثلة نادرة في صدق التعبير ، خاصة في مجال الغزل العذري والمدائح النبوية ووصف الطبيعة .

ومن ثم فانه من واجب اديبنا العربي ان يكون صادقا مع ربه ومع نفسه ومع مجتمعه ومع امته ومع فنه وادبه ، فيما يقوله ويعبر عنه . وبطبيعة الحال ان هذا الصدق يجب ان يكون في حدود الادب واللياقة والحشمة والوقار .

(ب) وبالنسبة لعنصر الرفض ، فانه ليس هناك من ينكر على ادبائنا العرب ان يتمسكوا به في الحدود المعقولة والمقبولة . فالرفض امر محمود اذا توجه به الاديب نحو اعمال الظلم والفساد من اي نوع ونحو النظم الفاسدة والتقاليد التي لا سند لها من الدين ولا من القيم العربية الاصيلة ونحو العواطف الكاذبة واساليب الملق والنفاق والرياء والخداع واذا ما ارتبط بالشجاعة والصدق والتزم بمبادىء الدين والاخلاق ، واذا ما اتخذ شكلا ايجابيا بناء يربط الثورة بالتخطيط للتغيير والهدم بالبناء والاقتراح البديل .

فالرفض بهذا الشرط ليس امرا مقبولا فقط ، بل هو امر مطلوب لادبنا العربي المعاصر . واما الرفض الهدام الذي نشاهد اثاره السلبية وجنايته على المقدسات والقيم الدينية والخلقية والحضارية في العالم الغربي ، وخاصة بين جيل الشباب ، فاننا نعيذ ادباءنا منه . ولا نعتقد ان فيه خيرا او نفعا ادبيا او اجتماعيا او سياسيا لامتنا العربية فظاهرة الرفض والتحلل من أي التزام بين الشباب الغربي اصبحت من أكبر المشاكل التي تعاني منها المجتمعات الغربية . ومما يؤسف له ان عدوى هذا المرض بدأت تتسرب الى مجتمعاتنا العربية ، ويساعد عليها الفساد السياسي والظلم الاجتماعي والتقليد الاعمى ..

(ج) ـ وبالنسبة لعنصر الايحاء الواضح في اتجاه العالم الداخلي للانسان فانه عنصر اساسي ومحمود تلاديب العربي ، اذا ما فهم على انه محاولة لمعرفة النفس والكشف عن مكنوناتها واسرارها ودوافعها اللاشعورية وعلى انه محاولة لمحاسبة النفس وتذكيرها ونوع من الحوار الداخلي والعمق في التحليل والتفكير . وواجب الاديب ليس فقط ان يتعمق في فهم مكنونات نفسه هو ويعبر عنها بصدق ، بل من واجبه ايضا أن يتعمق في دراسة وفهم اشاعر الانسانية لدى غيره ، فنحن نعلم أن جودة القصة والرواية كثيراً ما تقاس بقدر ما يتوفر فيها من تحليل نفسي وحوار داخلي عميق ومحاولة للكشف عما يختلج في نفسيات شخصياتها .

اما اذا اخذ هذا العنصر بالمفهوم والصورة الموجودين في الادب السريالي الغربي وما يترتب عليهما من انطواء على الذات ، واطلاق لعنان الحلم والخيال ، ودعوة الى العودة الى الطفولة ، واهمال للتصرفات الخارجية للانسان ، وغير ذلك ، فانه غير مقبول في ادبنا العربي . ولا اعتقد ان هناك داعيا يدعو اليه الا التقليد الاعمى والتعقيد النفسي والشعور بالنقص .

(د) وبالنسبة لخاصية او عنصر الشعور الحاد بإشكالية المصير الانساني وبالعجز عن تفسير القضايا الكبرى المتصلة بمصير الانسان، فانه هو الاخر لا يمكن ان يقبل على اطلاقه بالنسبة للاديب العربي العامر قلبه بالايمان . فهو يؤمن بأن للانسان خالقا عظيما اوجده من عدم ليعبده ويعمر هذا الكون بالعدل والاحسان والعمل الصالح ويعون الله وتقديره وتوجيهه ، ثم الى الله مرجع الانسان فيجازيه عن كل ما فعل من خير او شر وقد وضح القرآن الكريم والكتب السماوية عامة مسألة المصير الانساني بما لا مزيد عليه من التوضيح ، حتى انها لم تعد مشكلة يحتار العقل امامها بالنسبة للمؤمن حقا بوجود الله وبخلقه للانسان والكون كله وتسييره لهذا الكون حسب مشيئته وسابق علمه . وقد تولى علماء الشريعة والكلام التدليل على جميع العقائد المتعلقة بمصير الانسان بأدلة عقلية يقبلها العقل السليم .

والمفروض في الاديب العربي القوي في ايمانه وعقيدته الا يقع في حبائل الشك والحيرة والتردد في تحديد موقفه من المشكلات والمسائل المتعلقة بالمصير الانساني والامور الغيبية ، وذلك كما وقع فيها زميله الملحد في العالم الغربي . فالاديب العربي محمي بايمانه وقوة عقيدته من الوقوع في براثن الشك الديني وفي مسائل المصير الانساني بالذات . وقلة نادرة جدا من ادبائنا القدماء تعرضوا لهذا المرض ، نذكر منهم على سبيل المثال ابا العلاء المعري الذي كانت له تأملاته الحزينة في الكون والحياة وكانت له آراؤه المظلمة في المجتمع والناس .

وهذا لا ينافي ان الاديب العربي كغيره من الادباء والفنانين قد يتعرض في الفترة التي تسبق انتاجه الادبي او الفني الى حالة من القلق والتوتر والمعاناة الداخلية والشعور بوجود عبء في نفسه يريد أن يتخفف منه ، ولكن هذا القلق والتوتر والمعاناة الداخلية لا تصل لدى المؤمن الى درجة الشعور باشكالية المصير الانساني.

(هـ) وبالنسبة لخاصية الغربة الروحية وعدم الانسجام مع حياة العصر فانها هي الاخرى لا يمكن ان تقبل على اطلاقها لاديبنا العربي الذي نريده ان يكون عامر القلب بالايمان والحب لابناء مجتمعه وامته ، راضي النفس ، مطمئن البال ، ناظرا الى الحب نظرة امل وتفاؤل ، شاعرا بقيمته وفاعليته وبالدور الذي يمكن ان يقوم به في خدمة مجتمعه وبانتمائه ووثوق صلته بمجتمعه ، ومشاركا ايجابيا في حياة مجتمعه وامته ، وملتزما بقضايا مجتمعه وامته . تريده شخصا لا يحلق في مثالية مفرطة،ولا يقف عند التغني بآلامه وافراحه الذاتية، ولا يكتفي بالسخط وعدم الرضى من عيوب مجتمعه وعصره ولا يقف مكتوف الايدي امام الظواهر الجديدة غير المرضية في مجتمعه ، بل يتجاوز ذلك الى الكشف عن اسباب هذه العيوب والظواهر غير المرضية ثم الى التوجيه الى سبل التغلب عليها .

وليس منا من يرضى لادبائنا العرب ان يقلدوا ادباء الغرب الذين اصيبوا بلوثة الغربة الروحية وما يتبعها ويرتبط بها من فردية وانطوائية وسلبية وهروب فكري ووجداني ونظرة تشاؤمية وما الى ذلك من اعراض ولواحق الغربة او الفجوة الروحية ، لان ذلك التقليد ضار بهم ولمجتمعهم ومعطل لهم عن القيام بدورهم الايجابي في حياة مجتمعهم وامتهم .

ان هذه الخاصية تكاد تكون مرفوضة في جملتها . ولعل الجانب الوحيد المقبول منها الا يتورط الاديب في الفساد الذي يجري في مجتمعه ، وان يقف موقف الراصد لحركته والناقد لاخطائه وعيوبه والمتصدي لاوجه الفساد فيه .

(و) وبالنسبة لخاصية النسبية والتحرر من القواعد ، فانها هي الاخرى لا يمكن ان تقبل على اطلاقها وبالمعنى الذي فهمت به في الغرب ، لان الاخذ بها على اطلاقها امر ضار بالدين والقيم والاخلاق والخصائص الادبية والفنية العربية الاصيلة التي لا غنى عنها للعمل الادبي الجيد مضمونا وشكلا .

وبالرغم من تسليمنا بمبدأ النسبية في كثير من مظاهر الحياة ، خاصة في مجال العالم البشري والذوق الفني والادبي والتقاليد والاعراف الاجتماعية التي هي من صنع المجتمع ، فاننا نؤمن بان هناك قدرا كبيرا من الثوابت في مجال العقيدة وفي مجال القواعد الخلقية العامة والقيم الادبية والفنية الاساسية . وبالرغم من تسليمنا بضرورة التخفف من التحسينات البديعية الزائدة عن الحد اللازم والمرونة في استعمال القوافي والبحور الشعرية التقليدية فان هناك قدرا ضروريا من الصنعة والاناقة والتقاليد الشكلية لا بد من محافظة الاديب عليه ليصح تسمية الشعر شعرا وتسمية القصة قصة ، وتسمية الرواية رواية وتسمية المقامة مقامة ،هكذا ولا يمكن ان يبرر جهل الاديب بهذا القدر الضروري او عجزه عن الوفاء به بحيله النسبية والتحرر من القواعد .

هذه هي خصائص الادب الحديث في مفهومه الغربي وهذه هي انتقاداتنا لها وتعليقاتنا عليها قد عرضناها بشكل موجز مبسط.

٣ ـ المقصود بالتراث

وبعد هذه اللمحة البسيطة التي القيناها على مفهوم الادب المعاصر وعلى ملامح وخصائص مفهوم الحداثة والمعاصرة في الاديب العالمي وعلى رأينا في هذه الملامح والخصائص ، فانه يجدر بنا ان ننتقل الى الحديث عن الشق الثاني من موضوع كلمتنا هذه ، وهو الشق المتعلق بمفهوم التراث ومدى اتصال ادبنا العربي المعاصر بتراثنا العربي القديم ، والاسباب التي من اجلها بدأ يخفف بعض ادبائنا المعاصرين في علاقتهم بالتراث العربي القديم، ومدى الضرر والخطأ في هذا التخفف ، ووجه الضرورة في توثيق الصلة بين ادبنا المعاصر وتراثنا القديم ، والطريق الانسب لتوثيق هذه الصلة والمبادىء والشروط التي ينبغي ان تتم في اطارها هذه الصلة .

فبالنسبة للنقطة الاولى من نقاط الشق الثاني من الموضوع وهي المتعلقة بمفهوم التراث ، فانني لا اشك ان الجميع يتفق على ان المقصود بالتراث في هذا المؤتمر الادبي هو التراث الفكري والادبي العربي الفصيح الذي يستقي وجوده من الماضي العربي والاسلامي الذي يعيش على الدوام حيا في ضمير المواطن العربي وذاكرته ويمثل الطهر والقداسة والقيم والمثل العليا التي آمن بها مجتمعنا العربي والاسلامي في ابان براءته وبساطته واصالته وقوته وازدهاره. وهذا التراث يشمل فيما يشمل ـ بالاضافة الى هذه القيم والمثل العليا ـ الخصائص والصفات المميزة للامة العربية والثقافة العربية في اصولها السليمة ، وما في تاريخ الامة العربية من احداث ذات تأثيرات وعبر مستمرة مع الايام ومن مواقف انسانية خالدة وامجاد لا تزال تستحق التغني بها واستخلاص العبر والدروس منها ومن احكام تاريخية لا يتطرق الشك الى صحتها وسلامتها . كما يشمل ـ وهو الاهم ـ الفاظ اللغة العربية وجملها وتراكيبها واساليبها وقواعدها النحوية والصرفية والبلاغية ، وتقاليد الادب العربي القديم وخصائصه في موضوعاته وغاياته واغراضه ومفرداته وتركيباته ومجازاته وتشبيهاته وكناياته واخيلته وصوره الفنية واساليبه وفي قوافيه واوزانه وفي غير ذلك من خصائصه ومقوماته ومكوناته .

وهذه الخصائص والصفات والمقومات والمميزات التي يمتاز بها الادب العربي في عصور ازدهاره والتي تستمد وجودها من الخصائص والصفات القومية العامة للامة العربية هي التي تجعل للادب العربي المتحلي بها في جميع عصوره وازمانه طابعه المميز بين آداب الامم الاخرى ، ولا يضر مع المحافظة على الاصول والخصائص والصفات والتقاليد العامة للادب العربي القديم ما يطرأ على الادب العربي في عصوره المختلفة من تطويرات وتحسينات وتجديدات وابداعات تصعد به في سلم الكمال درجات ، ولكن الدرجة السفلى والدرجة العليا وما بينهما ستظل على الدوام درجات متوالية في سلم واحد (١) .

واذا كان المقصود الاساسي بأدب التراث هو ذلك الادب الذي يحافظ على الخصائص الادبية الاصيلة والذي يمتد من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر العباسي تقريبا ، فان ذلك لا يعني ان الادب الجيد الذي اتى بعد ذلك خارجا عنه ، او ان هناك صراعا بين القديم الاصيل وبين الحديث الجيد الذي يحافظ على التقاليد الاصيلة للقديم .

فالقديم والحديث اذا كانا يسيران في اتجاه واحد ويحافظان على نفس الخصائص الاساسية فانهما لا يعدوان ان يكونا مجرد تسمية زمنية ليس الا . ومن شان الادب الجيد الذي تتوفر فيه الخصائص الادبية الاصيلة ان يفرض نفسه وينال الاحترام مهما كان عصر قائله . فالبارودي وحافظ وشوقي ومن جرى في مضمارهم ، على الرغم من انهم من المحدثين وكانت لهم تجديداتهم الكثيرة فانهم ساروا في نفس النهج القديم ورجعوا بالشعر الى اساليبه القديمة الرصينة وديباجته المشرقة والفاظه الجزلة المتينة وبنائه المحكم وموسيقاه الرائعة الحلوة الساحرة وتخففه من البديعيات المتكلفة والمبالغات المفرطة ومن غير ذلك من اوجه الضعف التي اصابت الشعر العربي طيلة اربعة قرون في عهد المماليك .

---

(١) د . عبدالوهاب عزام « اثر الثقافة العربية في الثقافة المصرية الحديثة » مجلة الثقافة المصرية ، السنة الخامسة ، العدد ٢٣٥ ـ ٢٩ يونيه ـ ١٩٤٣ ـ ص ١٥ ـ ٣٠ .

٤ ــ مدى أتصال الادب العربي بالتراث وأسباب تخلف بعض المعاصرين في علاقتهم بالتراث :

ونحن اذا تصفحنا أدبنا المعاصر وحاولنا الحكم عليه من حيث صلته بالتراث بالمفهوم السابق الذي ذكرناه لهذا التراث ، فاننا نجده ينقسم الى قسمين رئيسيين : قسم يحافظ على تقاليد التراث وخصائصه ويجعل تجديداته سواء في الموضوع او في الشكل في اطار هذه التقاليد والخصائص الموروثة ، وقسم آخر يسير في تيار الثورة على التراث والتقليد المتعمد لاتجاهات واساليب الادب الغربي والاخذ بمفهوم الحداثة وبخصائصها وملامحها التي اشرنا اليها وناقشنا اهمها في فقرة سابقة من هذه الكلمة ، وبين هذا القسم وذاك يمكن ان توجد اقسام اخرى تختلف في درجة قربها او بعدها من التراث .

وبالرغم من ان القسم التقليدي لا يزال قويا ولا يزال المقبول من القالبية العظمى من افراد الشعب العربي خاصة جيل الكبار وذوي الثقافة العربية الاصيلة لانه يخاطب عواطفهم وينفذ الى اذواقهم ويعكس خصائص امتهم وثقافتهم العربية الاصيلة فان القسم الحديث المقلد للاتجاهات الغربية في مفهوم الحداثة والمعاصرة بدأ ياخذ طريقه ويتخذ بعض الانصار له ، خاصة في بعض الاقطار العربية المعينة وبين بعض الشباب وبين المثقفين ثقافة غربية ، وبالنسبة للادباء العرب السائرين في هذا الاتجاه الجديد فان صلتهم بالتراث الادبي العربي وما يحمله هذا التراث من صور واوزان وقوافٍ وخصائص وتقاليد بدأت تضعف كثيرا وبدأنا نجد منهم بين الحين والاخر من يتحامل على التراث ، وعلى الشعر العربي القديم واللغة العربية بالذات وينعتهما بالتحجر والجمود والتكلف والوقوف حجر عثرة في سبيل التحرر والانطلاق في التعبير عما في نفس الاديب بعيدا عن التكلف والتزويق ، ويدعو في نهاية المطاف الى التحلل من تقاليد الادب القديم وخصائصه في الشكل والمضمون والى التحرر من قواعد اللغة العربية .

واذا ما حاولنا البحث عن الاسباب الحقيقية التي تكمن وراء هذا التحامل والعداء ضد التراث او على الاقل اتخاذ موقف غير متحمس له ، فاننا نجد ان من أهم هذه الاسباب ما يلي :

(أ) جهل هؤلاء المجددين على الطريقة الغربية بادب التراث ، وقلة محفوظهم منه ، وذلك على خلاف ادباء السلف والمقلدين لهم الذين كان الواحد منهم لا ينصب نفسه شاعرا مثلا ــ حتى تصل محفوظاته من جيد الشعر الف ابيات . وكان الواحد منهم لا يقف عند حفظ القدر الكبير من جيد الشعر ، بل يحاول فهمه وهضم ما فيه من مفردات وتركيبات واساليب وتشبيهات وكنايات وصور فنية وخصائص ادبية ولغوية وبلاغية اخرى .

(ب) ضعفهم في اللغة وقلة زادهم من مفرداتها واساليبها وقواعد نحوها وصرفها واشتقاقها وفقهها وبيانها ومعانيها وبديعها وعروضها . وهم بدلا من ان يعالجوا هذا الضعف بالدراسة وتكميل نقصهم فيها ، فانهم اخذوا يحملون على اللغة العربية ويتهمونها خطأ بالصعوبة والتكلف والتعقيد والجمود ، وبانها ليست لغة حضارة ولا علم الى غير ذلك من الاتهامات .

وفاتهم ان العيب والضعف ليس في اللغة العربية نفسها ولكن في اصحابها الذين عزلوها . فلو أخذ اصحاب اللغة العربية بيدها وادخلوها الى مجال العلم وعالجوها وتناولوها ومارسوها بلغة العلم لاستطاعوا ان يصلوا الى لغة علمية قادرة على التعبير العلمي بمرور الزمن .

(ج) البلبلة والحيرة والقلق ، وعدم وضوح الرؤية ، وطغيان القيم المادية والمصالح الاقتصادية ، وغزو الثقافة الغربية باتجاهاتها ونزعاتها ومذاهبها الفكرية والفلسفية والاقتصادية واهتزاز القيم الموروثة ، سواء أكانت ادبية أو غيرها التي اصبح الاديب العربي يتعرض لها فتؤثر فيه وتجعله يفقد الثقة في نفسه وفي مجتمعه وفي تراثه ويقع فريسة في تيار الثقافة الغربية المعاصرة باتجاهاتها ونزعاتها المنحرفة . واكثر من يتعرضون لهذه العوامل المضعفة للثقة بالنفس والتراث هم من ناقصي الثقافة الاسلامية العربية والمرتمين في احضان الثقافة الغربية بدون ضابط ولا وعي .

(د) الصعوبات والعيوب والمشاكل التي تكمن في اللغة العربية نفسها والتي لها جذورها التاريخية القديمة ، وذلك ان الذين درسوا اللغة العربية في بداية الامر درسوها كما لو كانت شيئا واقفا ، كما لو كانت وحدها في الميدان ، ووضعوا قواعدها في تاريخ محدد ، وانتهوا بالاستشهاد بموت ابراهيم بن هرمة سنة ١٥١ هـ ، واعتبروا كل ما جاء بعد ذلك مولدا لا يصح الاستشهاد به ولم ينظروا الى اللغة العربية على انها امتداد لنفسها وامتداد الى اخواتها الساميات في القديم . ولعلهم لو نظروا في اللغات الساميةالاخرى او نظروا في اللغة العربية نفسها في فترات اسبق لاستطاعوا ان يتوصلوا الى حل كثير من المشكلات الصوتية والنحوية والصرفية التي ترجع الى تاريخ قديم ، كما انهم غلبوا اللهجة ولم يعطوا عناية كافية لبقية اللهجات العربية ، ولجأوا الى القياس المنطقي ، مع انه ليس هناك علاقة متبادلة تامة بين المنطق وبين اللغة ، حيث ان الكل لغة منطقها الخاص بها ، ولو كانت اللغات متمشية مع المنطق العام تماما لاستوت اللغات في كثير من المسائل . وهذا غير موجود كما نعلم . وكان من نتائج استخدامهم للقياس المنطقي في اللغة انهم لجأوا الى قضية الاستتار ، وقضية التاويل والحذف ، وما الى ذلك (١) .

(هـ) اغراق الشعر الجاهلي الذي يكون ركنا هاما في التراث في الشكلية والتشابه الكبير في التقاليد ، ان لم يكن وحدتها تماما . ومن التقاليد الشكلية التي كان يتمسك بها الشاعر الجاهلي والتي لم يعد هناك معنى للتمسك بها في العصر الحديث : المرور على المنزل ، والبكاء على الاطلال ، والتغزل بالحبيب ، ووصف الليل والخيل ، ووحدة البحر والقافية في القصيدة الواحدة ، واستقلال كل بيت وانفراده عما قبله وعما بعده ، الى غير ذلك .

وقد رأى الشاعر العربي الحديث المتحرر في مفهومه للحداثة في ذلك الاغراق في الشكلية وفي التقيد بوحدة البحر والقافية واستقلال كل بيت عن الاخر في القصيدة منافاة لروح العصر الحديث ولمبدأ الصدق في التعبير الذي يفرض على الاديب الا يقول الغزل الا اذا كان محبا فعلا والا يمدح وهو يعلم ان الشخص الذي يمدحه لا يستحق المديح والا يرثي وهو لا يشعر بأدنى ذرة من الحزن في قلبه ، وهكذا .

وفي تصور الشاعر العربي السائر في الاتجاه الغربي ان التقيد بوحدة البحر والقافية وبعدد معين من التفعيلات يحول بينه وبين الانطلاق على سجيته ، وان استقلال كل بيت في القصيدة وانفراده وما يترتب على ذلك من تعدد الموضوعات في القصيدة الواحدة اصبح لا ينسجم مع طبيعة القصيدة الحديثة التي ينظمها الشاعر كوحدة متطورة متماسكة ذات موضوع واحد وتجربة معاشة .

وكل ذلك جعل الشاعر العربي السائر في اتجاه التجديد يتخفف من علاقته بشعر التراث ، وربما يشتط في نقده والتحامل عليه .

(و) مبالغة بعض الشعراء المتاخرين في التزويق اللفظي والترصيع بالمحسنات البديعية التي تصل بالشعر الى درجة التكلف الممقوت الذي لا يقبله منطق الادب الحديث الذي يرى في الشعر على انه موهبة

---

(١) ينظر نفس المرجع السابق ، نفس الصفحات .

وليس مجرد صنعة وانه مضمون وفكرة قبل ان يكون شكلا . ويكاد الادباء المحدثون يجمعون على استهجان ما امتلأ به ادب المتأخرين من الوان البديع المتكلفة التي لا غرض من ورائها غير الزينة والزخرف وروعة السامعين وجذب انظارهم اليها وبها ، وغير اظهار بلاغة الشاعر وبراعته اللغوية . ويعتبر هؤلاء المحدثون ان خير الكلام ما خلا من الصنعة المتكلفة وائتلفت الفاظه وائتلقت معانيه ، وكان قريب المعنى ، بعيد المرمى بريئا من وصمة التكلف ومن عشوة التعسف ،غنيا عن مراجعة الفكرة .

ومن واجبنا ان ننبه الى ان هذا الانتقاد وان صدق بالنسبة لادب بعض المتاخرين في عصر المماليك فانه لا يصدق بالنسبة لشعر القدماء من جاهليين واسلاميين واموييين وعباسيين الذين كانت الصنعة والتحسينات في شعرهم تاتي طبيعية غير متكلفة . ومن واجب ادبائنا المحدثين ان يفرقوا بين الصنعة والتكلف . فالصنعة لا بد منها في كل عمل فني يقترب من الكمال ، يزاولها الفنان فتكون من تمام جمال الفن . ولقد كان زهير يأخذ شعره باتصنعة اذ كان يعاود حولياته بالتنقيح والتثقيف . وتعاقب بعده شعراء تناولوا اشعارهم بالصنعة والتحسين كالحطيئة وبشار وغيرهما ، حتى كان مسلم بن الوليد وابو تمام وابن المعتز فالتفتوا الى المحسنات اللفظية والمعنوية وحسن موقعها من الكلام فاتخذوها في صناعتهم الشعرية قصدا ، وكثيرا ما كانت تواتي اسلافهم عفوا ومن فيض الخاطر .

ولا ينبغي ان يغض التكلف المرذول من قدر البديع المحكم الصنع. فما البديع الا مادة زينة كالذهب والازهار ، يختلف المزين بها باختلاف الصناعة والتنسيق . وهنا يكمن الحد بين الصنعة والتكلف، وكيف نحمل على التخلي عن الصنعة في الاثار الادبية ؟ أليس اختيار الالفاظ واحكام النسج وترتيب الافكار والمعاني صناعة ؟ ولو تخلينا عنها لما استقام للشعر وزن ولا اطردت له قافية (1)

هذه بعض الاسباب التي من اجلها يتخفف الادباء المحدثون المتحررون في علاقتهم بالتراث وهذه بعض الانتقادات التي يوجهونها الى هذا التراث . وفي انتقاداتهم لادب التراث بالذات من التعميمات والمغالطات المقصودة وغير المقصودة ما لا يحصى ، ليس الخلط بين ادب التراث في عصر ازدهاره وبين ادب عصر المماليك المتخلف ، والخلط بين الصنعة الطبيعية المحمودة وبين الصنعة المتكلفة المعابة الا بعض هذه المغالطات .

٥ ـ وجه الضرورة في توثيق الصلة بين الادب العربي المعاصر والتراث .

ولكن مهما كانت الاسباب التي من اجلها يتخفف بعض الادباء المحدثين في علاقتهم بالتراث او يحاول التخلي عن هذا التراث كلية، ومهما كانت الانتقادات التي يوجهها هذا البعض الى التراث ، فانه لا غنى للادب العربي المعاصر ـ اذا اراد ان يحافظ على اصالته وشخصيته العربية الاصيلة وعلى شخصية الامة التي ينتمي اليها من الناحية الثقافية والروحية بالذات ـ من ان يوثق صلته بالتراث العربي القديم الاصيل والسليم . ان توثيق هذه الصلة ضرورة قومية ودينية وثقافية وادبية في آن واحد . وليس في هذه الصلة او العلاقة القوية المتينة ما يحد من قدرة الاديب الاصيل الموهوب والمتمكن من ادواته اللغوية والفنية على الخلق والابداع ، او من قدرته على الانطلاق في التعبير ، او من قدرته على علاج اية قضية من قضايا مجتمعه وامته وطرق كل جديد في عصره ، او من تفتحه على الاداب الانسانية والثقافات الاخرى ، او من تطوير ادبه وانمائه .

ولنكون اكثر تخصيصا ووضوحا في بيان ضرورة اتصال الادب الحديث بالقديم الاصيل السليم وبيان اهمية هذا الاتصال ، فاننا نذكر بايجاز الاسانيد والمدعمات التالية :

(أ) ان تراث الامة في اي ضرب من ضروب المعرفة والفن من انفس ما تملكه ومن خير ما تركه السلف من ثقافة وحضارة . ان هذا التراث مصدر ثري وينبوع دافق لا يمكن لاي متدارس ، سواء انصف ام لم ينصف ، تجاهله ، لانه احد خصائص الامة الكبرى . واهتمام الامة بتراثها يزداد ويشتد بعد ان تلتفت الى نفسها ، وتتمركز نظراتها، وتنفتح آمالها ، وتزدهر مطامحها القومية (1) .

ولهذه الاهمية التي يحتلها التراث من الناحية القومية ، فانه من واجب ادباء الامة في كل عصر ان يحافظوا على قراءته وحفظه وفهمه وهضمه والتفاعل معه والاقتباس منه ومعارضته ومحاكاته ومباراته لمحاولة بزه والتفوق عليه واعتباره نقطة البداية في تطوير وتجديد ادبهم ، وذلك كما فعل شوقي وغيره من ادبائنا وشعرائنا المجددين الجيدين . فتقليد شوقي ـ مثلا ـ للاقدمين « لم يكن يعني ـ (كما يقول الدكتور شوقي ضيف) ـ التخلف ، وانما كان يعني التفوق . فما يزال يحور في المعنى ويولد في الفكرة حتى يستخرج الدرة اليتيمة . فتقليد شوقي ليس معناه العفن ، وانما معناه القدرة على الخلق والابداع . فما يزال بالمعنى او الفكرة حتى يحولها الى ملكه وحتى يضرب عليها طابعه ، وما يزال يتخذ من صياغة الشعراء صياغة جديدة له ، منهم ، وليست ملكهم ، وانما هي له ومن صنعه . لا يجور على القوالب والاصول والاوضاع القديمة ، ومع ذلك فهو صاحبها ، وهي ذات كيان حي ..

وهذا هو التقليد الحي . فهو ليس تحجرا ولا جمودا ولا تعفنا، وانما هو تغلغل وتعمق في التقاليد الفنية الموروثة ، حتى لا يضرب الشاعر في متاهات الفن ، وحتى لا يضل طريق الشعراء النوابغ الذي سلكوه امامه في لغته ، فيجري في نفس الدروب على هدي سابقيه ، ثم يحاول ان يبتدع المثال النادر ، بعد ان يكون قد تعرف تعرفا كاملا على كل ما صاغه اسلافه ، اذ رآه رؤية صحيحة، في اعظم ما يكون من النور والضياء » (2) .

(ب) ان قراءة الادب القديم السليم في اسلوبه وفي معناه في غاية الاهمية للاديب المعاصر ، لدرجة اننا لا نتصور ان شاعرا عربيا حديثا يمكن ان يمني صرحا في الشعر الاصيل ما لم يقرأ قراءة ترو وفهم واستيعاب وتمثل واستلهام وتذوق ادب التراث الاصيل وزود نفسه منه ما استطاع الى ذلك سبيلا ، لان هذا الادب الاصيل هو الصورة المثلى للعربية الموحدة ،والصورة المثلى للنطق ، والصورة المثلى للقراءة الجيدة . وما كان البارودي وشوقي وحافظ ابراهيم واحمد رفيق المهدوي وغيرهم من فحول شعرائنا المحدثين ان يصلوا الى ما وصلوا اليه من جودة الشعر لولا قراءتهم واستيعابهم لشعر الشعراء القدماء المجيدين من امثال ابي فراس وابي العلاء المعري وابي العتاهية والعباس بن الاحنف والبهاء زهير، والمتنبي وابو تمام والبحتري والمهلبي وابن الرومي والشريف الرضي وابن زيدون والبوصيري وغيرهم من شعراء التراث الذين يمثلون الشعر العربي في ازهى عصوره وصوره .

والاديب المعاصر برجوعه الى ادب التراث واستيعابه يستطيع

---

(1) عباس حسان « نظرات في ادب المتأخرين » مجلة الثقافة المصرية ، السنة الثامنة ، والعدد ٣٩٨ ، ١٣ اغسطس ١٩٤٦ م ، ص ١٦ ـ ١٨ .

(1) طلال سالم الحديثي ، مقدمة وستة شعراء . بغداد . مطبعة دار البصري ١٩٧٠ م ، ص ٢١ .

(2) د . شوقي ضيف . شوقي شاعر العصر الحديث . القاهرة: دار المعارف بمصر ١٩٥٣ ،ص ٨٠ ـ ٨١ .

الاحتفاظ بقيم الماضي مجردة من المصالح ، ويربط الحاضر والمستقبل بالماضي ، وينمي موهبته الادبيـة وذوقه الادبي وملكته النقدية . ولهذا كان من حكم الاوائل قولهم « اكتبوا احسن ما تسمعون،واحفظوا احسن ما تكتبون ، وتحدثوا بأحسن ما تحفظون » .

ومما رآه الاستاذ احمد الزين احد رواد الحركة النقدية الادبية في هذا القـرن الامران التاليـان :

« الامر الاول : ان اتذوق الادبي وملكة النقـد الفني انما يخلقـان وينموان في نفوس المتأدبيـن بكثرة ما يحفظون فيمـا تركوا ، ثم يدأبون على تطبيق ما لم يسمعوا على مـا سمعوا وقياس ما لـم يعلموا علـى ما علمـوا . وهكذا حتى تصبح ملكاتهم قادرة على ابتكار ضروب فـي النقد لم يسبقوا اليها وطرق جديدة في تمييز الكلام لـم يدلهـم عليهـا احـد .

الامر الثاني : ان الفساد والضعف في الشعر الحديث ترجعان الى عدة اسباب افواهـا ان ناشئة الشعراء في هـذا العصر لـم يرجعوا في تعلم الشعر الى مصادره التي منهـا بعث وفيها شـب واكتهل . فلم يقرأوا من شعر الفحول المتقدمين الا قليلا ، ولـو فعلوا لاكسبهم ذلك الشعـر تقويمـا لالسنتهم وتحسينا واضحا فياساليبهم وحياة قويـة في عباراتهم وتعلموا من ذلـك الشعـر كيف يبرزون احساساتهم وعواطفهم واخيلتهم في صورة واضحـة الدلالة بينةالمعالم لا غموض فيهـا ولا التواء، لكنهم رجعوا في تعلم الشعر الى ما ينشر في الصحف كل حيـن من شعراء الضعفاء ، وطبيعي ان الفرع اضعف مـن الاصـل .. » (١)

(ج) ان توثيق الصلة بالتراث فيه اكبر دعـم للغـة العربيـة الفصحى التي تعتبر اللغـة العامة والمشتركة التي يفهمها العـرب جميعـا على اختلاف اماكنهم وبيئاتهم ، واكبر عـون على توحيد اللغة العربية والتقليل من الصيغ اللغويـة المختلفـة او من شتات اللهجات العربيـة الكثيرة والتقريب بيـن هذه اللهجات . فقد كان الادب على الدوام وسيلة من اهم الوسائل لتوحيـد اللغـة والتقليل من شتـات اللهجات العربية وتقريب الهوة بيـن اللغـة المنطوقـة واللغـة المكتوبة. ودوره اليوم في هذا التوحيـد اشد ضرورة واكثر خطورة ، وذلك في وقت اخذ فيه التحسس بالقوميـة العربية يقوى ويشتد . وبطبيعة الحال ان اللغـة العربية هي ابرز مظهر من مظاهر القومية ، بل هي رمز القوميـة ومقومها الاساسي واوثق رباط بيـن الناطقين بهـا ووسيلتهم الوحيدةفي التفاهم على اختـلاف اقطارهم وكياناتهـم المصطنعـة .

واللغة التي لها هذه الاهمية هي اللغـة العربية الفصحى لانها هي اللغـة المشتركـة التي يفهمها الجميع . ومن واجب فنانيناوادبائنا العـرب ان يكتبوا فنهم وادبهم باللغـة العربيـة الفصحى ولـو البسيطة السهلة ، لان هذا ليس في صـالح وحدتنا اللغوية وحسب. بل هو ايضا في صالح وحدتنا الفكريـة والسياسية والنفسية ، لان اللغـة ليست مجرد الفاظ مرصوفة وليست مجرد وسيلة اتصال، بل هي علوم وآداب وعواطف مصوغة في الفاظ . وهي قبل هـذا وبعده لغة الدين الاسلامي والوعاء لشريعته الغراء .

واذا كان للغة العربية الفصحى ما ذكرنا من الاهمية فانه لا بد من الحرص عليهـا في اغانينا وروايآتنا ومسرحياتنا واشعارنا . ومـن الخطـأ الفادح ان يلجأ ادباؤنـا وفنانونـا الى كتابة انتاجهم الفنـي والادبـي باللغـة العاميـة بحجة ان اللغـة العامية اقرب الى ذهن السامع والرجل العادي وهو يريد أن يفهـم الاغنيـة أو القصـة او المسرحية ، او غير ذلك من الاعمال الفنية . « ولكن ثبت ان هذا الكلام ضعيف ، لانه كتبت قصص وكتبت مسرحيـات باللغـة الفصحى ، وحتى في الشعر كما في مسرحيات شوقـي وعزيز اباظة ،كتبت الشعر الراقي السليم ، وفهمت . فالقضيـة قضيـة التثقيف اللغوي العـام في البيئـة المعينة ، كيف نصل الى هذا التثقيف اللغوي ؟ هذه قضية المعلميـن والمتعلميـن جميعـا .

وهناك لغة سهلة مبسطة مثل الخطب المنبرية التي رغم ثقلهـا احيانا لان الخطيب يأخذ طريقا معينا في الالقاء واسلوبـا معينـة في التعبيـر ، الا ان الناس يفهمونهـا . فهنالـك اساليب عربية سليمة فصيحة ، سهلة ، مبسطة ، يمكـن ان يفهمها الرجل العادي ، ثـم الرجل العادي يجب ان نرفعه لا ان ننزل الى مستواه ، فنأخذ بيده ، نعطيه جرعة من كلام فصيح سهل في البدايـة ، ثم نرتفع بهذه اللغة الى أن نصل الى الفصحى المبسطة » (١) .

والتخلي عن العربية الفصحى انما هو رجوع بالفكر العربي الى حالة السذاجة والجهل التي كانت عليها الامة في اوائل نشأتها . وهو دفـن لتراث الامة التليد وقطع لتاريخها المجيد (٢) .

والدعوة الى تغيير الابجدية العربية لا تقل في خطورتها وضررها على التراث عن الدعوة الى استعمال اللغـة العاميـة في كتابة الفـن والادب . فتغيير الابجدية العربية فيه تغيير ضمني للتراث العربـي، « لانه لو وضعنا ابجديـة جديدة الان ، لا بد ان ننظـر في التراث، فاما ان نعيد كتابته ، واما نعلم الناس نوعين من الابجدية يقرأون بواحدة القديم ويقرأون بالاخرى الحديث .. واعلم ان الابجديـة العربية خير ابجدية على وجه الارض العربية .. هذه الابجدية العربية صالحـة لان يكتب فيهـا القطري لهجته والمصري لهجته ، الخ .ففيها من المقومات ما حرمت منها الكثير جدا من الابجديـات ، ومـا زالت الى حد كبير تمثل النطق بصورة واضحة جدا » (٣) .

طرابلس (ج.ع.ل)
د . عمر التومي الشيباني

---

(١) احمد الزين ، « من احسن ما يروى : دراسة واختيار » ، مجلة الثقافة المصرية . السنة الاولى ، العدد الرابع ، ١٩٣٩ م ، ص ٣٩ ـ ٤١ .

(١) د . كمال بشر « عوامل التوحيد اللغوي » . محاضرة فـي الموسم الثقافي الاول لكلية التربية بدولة قطر ١٩٧٥ م،ص٦١ـ٦٩ .

(٢) اسحق موسى الحسيني « العلاقة بين الفصحى والعامية » مجلة الثقافة المصرية . السنة الاولى ، العدد الرابـع ، ٢٤ ينايـر ١٩٣٩ ، ص ٢٣ ـ ٢٥.

(٣) د . كمال بشر ، عوامل التوحيد اللغوي ـ سبـق ذكـره ، نفس الصفحـات .